حياة التسليم

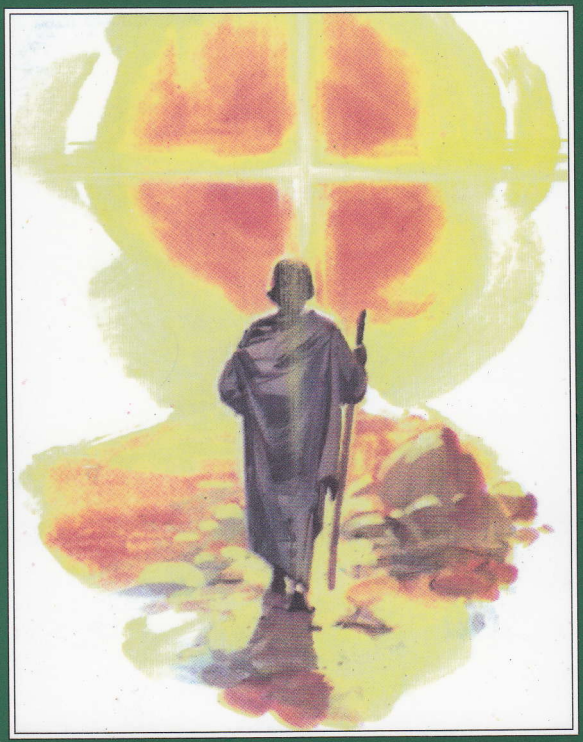

مكاريوس
الأسقف العام

مراجعة
نيافة الأنبا أرسانيوس

إســـم الكتــــاب : حياة التسليم

مراجــــــعة : نيافة الأنبا أرسانيوس

اعـــــــداد : راهب من دير البراموس

الطبــــعة : الســـادسة مايو ٢٠٠٢م

الأولى يونيو ١٩٩٥م

جمع كمبيــوتر : مركز الدلتا للطباعة ☎: ٥٩٠١٩٢٣ (٠٣).

طـــباعة : مركز الدلتا للطباعة.

٢٤ شارع الدلتا سبورتنج إسكندرية ☎: ٥٩٠١٩٢٣ (٠٣).

رقم الإيـــداع :٢٠٠٢/١٠٩٢٧

قداسة البابا شنوده الثالث

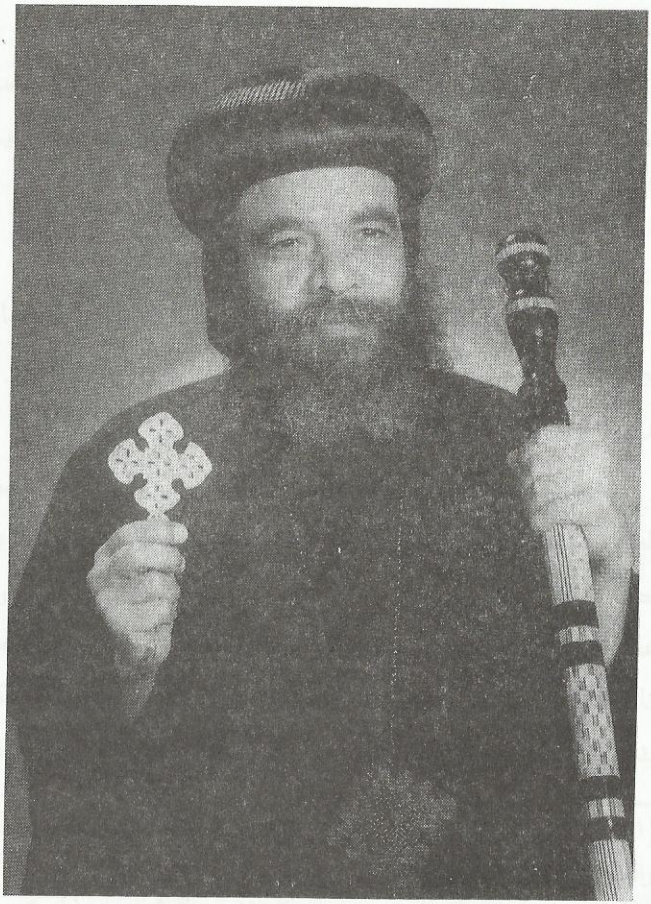

نيافة الأنبا إيسوذورس

أسقف دير البرموس العامر

حياة التسليم

فى وقت يسود فيه «الإلحاد العملى» [1]، سيكون من الصعب الحديث عن موضوع مثل التسليم، ذلك أن البعض قد ينظر إليه باعتباره ترفاً فكرياً فحسب!.

فكيف نسلّم لإله لا نعرفه، وبالتالى لا نثق فيه؟

لذلك فإن التسليم هو ثمرة شهية من ثمار الإيمان، فالإيمان هو الثقة بما يرجى (وليس بما ندركه فحسب) [2] والإيقان بأمور لا ترى (عب ١١: ١).

عندما تذمّر بنو إسرائيل على موسى فى البرية - بسبب شهوة الطعام - أعطاهم الرب المن والسلوى إلى حد التخمة! (فيعطيكم الرب لحماً فتأكلون، وتأكلون لا يوماً واحداً ولا يومين ولا خمسة أيام ولا عشرة أيام ولا عشرين يوماً، بل شهراً من الزمان حتى يخرج من مناخركم ويصير لكم كراهة..... عد ١١: ١٨ - ٢٠) ثم يعود الله ليذكر بنى إسرائيل بأنهم ولمدة أربعين سنة فى سيناء، لم يدع ثيابهم تبلى

---

(١) وهو غير الإلحاد النظرى، الذى يجتهد فيه الملحد، عن طريق العقل والمنطق، إثبات عدم وجود الله.

(٢) قال سارتر: إنى اؤمن بجسدى ... بالدولار.. بالبنك ... بما أدركه.

(ثيابك لم تبل عليك) «تث ٨:٤». ففى تأمّل لأحد اللاهوتيين، يرى أن الله سمح بأن لا تبلى ثيابهم لأنهم نسوا أن يتذمروا على الثياب! بمعنى أنه كان من الممكن، ألآ يحتاجوا إلى الطعام، ما لم يتذمروا بسببه، وبالتالى فإنهم إن كانوا تذمّروا على الثياب والأحذية لكان الله أعطاهم بوفرة وسخاء شديدين (١).

إن الإيمان لا يتمم عمله فى دائرة الممكن، وإنما من حيث تنتهى حكمة الإنسان وحيلته وقوته: يبدأ الإيمان عمله، أى أن الإيمان يبدأ من حيث تنتهى الممكنات، ويعجز العيان والحسّ: الإيمان يهزأ بالصعوبات!

إن قلق الشباب يتلخّص وينحصر فى نقطتين:

(١) أزمة شكر.

(٢) أزمة ثقة.

أزمة شكر على الوضع الراهن، بما قد يكون فيه، إمّا مستوى مالى دون الذى يرغبون فيه، أو مستوى اجتماعى يتحرّقون إلى تعديله..

---

(١) أى أن ثياب الطفل لم تبل، ولكن تسلمها منه طفل آخر وهكذا بالنسبة لبقية الثياب وبقية الشعب.

أزمة ثقة فى قـدرة الله على تبـديل الوضع الراهن، أو على الأقل، قبولنا له (أن يجعله مناسباً لنا).

علينا أن نعرف أن الكثيرين من الأغنياء يفتقرون فى حياتهم إلى الشكر، شأنهم فى ذلك شأن الفقراء والمعدمين، الذين يعانون من التذمر!.

علينا أن نقـارن أنفـسنا بمن هم دوننا فى المسـتـوى المالى والاجتماعى، وحينئذ سيتحرّك داخلنا (الشكر) فى حين نقارن أنفسنا بمن يفوقوننا فى الروحيات، فيتحرّك داخلنا الاتضاع. مع ملاحظة ضرورة وجود تحـفّظين هامّين فى المقـارنة، ففى المقـارنة الأولى نحتاج إلى الاتضاع، والثانية إلى رجاء..

وفى مصر تُرهق (الكماليات) كواهل الشباب، حيث تصل إلى حوالى نصف نسبة الإنفاق، وهذا بالنظر إلى أننا نحيا فى مجتمع استهلاكى [1]

---

(١) الإيمان ومجتمع الإستهلاك ـ كوستى بندلى.

حياتنا ومستقبلنا ومصيرنا فى يد الله وحده :

علينا أن نثق بأن الله، لا يمكن أن يدع حياتنا ومستقبلنا فى يد شخص آخر، أو قوى خفية أخرى، مهما كان هذا الآخر أو تلك القوى، ولكنه (له المجد) يستثمر ويحرّك كل القوى البشرية والمادّية فى سبيل تحقيق مشيئته الصالحة لنا. ويرى القديس يوحنا فم الذهب [1]، أنه وحتى أولئك الذين يريدون أن يُلحقوا بنا الضرر، لن يفلحوا فى ذلك، إذا كانت لنا ثقة - تعادل إيمان الأطفال - فى الله، وأن هناك فرقاً، بين أن يضرّك شخص (يحاول الإضرار بك) أو أن تُضار أنت!، نعم فقد يكون هناك بعض ممن يسعون للإيقاع بك، ولكن أن تستسلم للضرر؟، هذا شأنك وحدك..

فهل أضرّ بهابيل، حقد قايين عليه! .. لا بل تزكّى هابيل وأُدين قايين، وهل أضرّ بيوسف، حسد اخوته؟ كلاّ بالطبع، فإن أذى الآخرين لا يضيرنا، بل يفيدنا ويزكينا.

فى سيرة القديس مقاريوس الكبير [2]، وردت هذه القصة الطريفة والرائعة، فقد كُتب أن الشيطان هاجمه ذات مرة مندفعاً نحوه بقوة هائلة مخيفة، مريداً قطع يده بسكين كان معه، فما كان من

---

(١) فى مقال بعنوان من يقدر أن يؤذيك/ ترجمة القمص تادرس يعقوب

(٢) سيرة القديس مكاريوس - بستان الرهبان

القديس، إلاّ أن بسط يديه أمام الشيطان فى هدوء وثبات واتضاع، وهو يقول بعذوبة [... تفضل اقطعها.. فإن كان الله قد صرّح لك بقطعها، فهل أستطيع أنا أن أمنعك... لكن إذا لم يكن الأمر كذلك، فإنك لن تستطع المساس بى..] وإذا بالشيطان يتحول إلى دخان ويختفى...

هــذا هُو إفراز القدّيسين ..

وتكرر نفس الأمر مع القديس أنطونيوس - من قبل - حين حاولت الشياطين أكثر من مرة أذيته فلم تستطع، وذلك بسبب ثقته فى الله وتسليمه له حياته [١].

إن الله الذى وضعت ثقتك فيه، وسلّمت له قيادة سفينتك، فى براءة الطفولة الحلوة، سيجعل أعدائك يحاربونك ولا يقدرون عليك (لأنى أنامعك يقول الرب لأنقذك) «إرميا ١:١٩؛ ١٥:٢٠». لقد وجد الكثير من الرؤساء والمديرين والقادة وأُولى الأمر - فى مختلف المجالات - أنفسهم مدفوعين - بقوى خفية - لاتخاذ بعض القرارات (وربما ضد رغباتهم الخاصة) ومحمولين على القيام بعمل ما، مُكرهين أو راضين، لأنهم هم أنفسهم ليسوا ملكاً لأنفسهم!، وإنما دُفعوا لذلك من أجل خير أولاد الله.

---

(١) سيرة القديس أنطونيوس - بستان الرهبان

ولعل هذا، ما يفسر لنا، ما نسميه: نعمة فى أعين الآخرين، أى أن يعطيك الله نعمة فى أعين رؤسائك، بل وأعدائك أيضاً، ويحوّل قلوبهم من نحوك دون سبب واضح (بالنسبة لهم !) . هذا ما عبّر عنه داود النبى بقوله (هيأت لى مائدة تجاه مضايقىّ) «مز ٢٣ : ٥».

ففى الدراسة، يعمل الله فى الأستاذ الذى يشرح فى الفصل أو فى المدرّج، ثم يعمل فى واضعى الامتحانات، ويعمل فى المراقبين على الممتحنين، ثم يعمل فى المصحّحين وفى المراجعين، وفى هيئة الكونترول، كل ذلك لكى يحقّق مشيئته للطالب.

لقد خلق الله فيك، ارادة ورغبة وحرّية، ولكن متى سلّمت له هذه الإرادة، تولّى هو قيادة حياتك وسيّرها فى الطريق الصحيح حتى الملكوت.

وانتبه، فإنه ليس من اللائق فى شئ، أن تقارن نفسك، بمن نجحوا ومن أثروا بعد تعثّر وفقر!، ومن اتسعوا بعد ضيق، فقد عاتب الله ـ فى مثل الفعَلة ـ ذلك العبد الذى حسد زميله، والذى عمل لمدة ساعة واحدة، ونال نفس أجره هو، بالرغم من أنه عمل طوال اليوم، فقال له صاحب الكرم (أم عينك شريرة لأنى صالح) «مت ٢٠ : ١٥».

بل أن الله كثيراً ما يسمح بصدور قرار عام فى الجامعة مثلاً، أو بعض الشركات أو الوزارات، لكى يستفيد منه شخص واحد! كان

قد سلّم حياته للمسيح ووثق فيه. هل كانت حياة داود فى يد شاول؟!، أبداً، بدليل أن شاول الملك، حاول مراراً أن يقتل داود، ولكن الله أنقذه، لقد كان داود على بعد خطوات من شاول، ومع ذلك لم يتمكن شاول من قتله. كان شاول ملكاً على إسرائيل، بينما لم يكن داود، سوى فتى يافع من رعاياه، لا حول له ولا قوة فيه، ومع ذلك فقد حفظه الله وأنقذه من موت محقق، وجعل حياته فى حزمة الحياة (١صم ٢٥: ٢٩).

لم تكن حياة البابا أثناسيوس الرسول، فى أيدى الأريوسين، لقد تعرض مراراً للموت، ولكن الله حفظه، وأنقذه من مكائدهم، وردّ عليهم شرهم «إلى الموت لم يسلمنى» (مز ١١٨: ١٨).

الشهداء أيضاً حفظ الله نفوسهم وأرواحهم، فبينما كان المضطهدين يتفنّنون فى أساليب تعذيبهم، كان الشهداء يسخرون من الموت، بطريقة كانت تثير دهشة مضطهديهم أكثر فأكثر.

وكذلك المجاهدون فى البرارى والجبال وشقوق الأرض، حفظهم الله من الافتراس، وجعل الوحوش تسالمهم، بل وتخدمهم، وضمن الله لهم خبزهم وثيابهم. فمن كان الله هو قائده، فإن الله يصير بالنسبة له، الطعام والشراب واللباس والأمن والأمان.

فى أحد أروقة الهيكل اليهودى، كانت تباع قطعان من

الماشية، والعصافير مع طيور أخرى، وهى ما يحتاجه اليهودى لتقديم الذبائح، وكانت ذبيحة التطهير (بالنسبة للفقير) عبارة عن عصفورين، ولكن الباعة الذين كانوا يبيعون العصافير، كانوا يبيعون العصفورين بفلس واحد، بينما - وعلى سبيل تشجيع المشترين - كانوا يبيعون الخمسة عصافير، بفلسين، أى أنه هناك، عصفور واحد بلا ثمن!، وعن هذا العصفور تحدث السيد المسيح مؤكداً أنه غير منسىّ أمام الله، وأنه لن يسقط دون اذنه، فكم بالحرى نحن!. (لو ١٢: ٦).

كم مرة اشتهيتَ أن يكون مديرك فى العمل، شخصاً عادلاً حنوناً، وكم تمنى الطلبة فى الجامعات، مدرساً أميناً، أو عميداً له روح الأبوة، وكم تمنّى المواطنون أن يكون المسئولين عن مصالحهم فى الهيئات والمصالح الحكومية، أشخاصاً ذوى رأفة وسماحة..

الآن.. اطمئن، لأنه الله هو المسئول عن كل هذه المواقع، فمقاليد الأمور فى يده.. الآن يجب أن تنزع من قلبك كل حقد أو كراهية نحو أىّ منهم، فالله هو **ضابط الكلّ** (قلب الملك فى يد الله، هكذا كل الرؤساء) «أمثال ٢١: ١»

الله محبّ البشر:

الله يحب كل خليقته وعمل يديه، ولكن لا توجد خليقة مدللة لديه، مثل الإنسان، إنه إله محب أكثر منه سيّد!، أحبنا ويحب لنا

الخير، ويحبّ أن نحيا معه فى ملكوته، لقد خلقنا بعد أن خلق لنا كل شئ، كل الخير، وكل الاحتياجات.. لكى نفرح ونستمتع به وهو معنا..

وأمّا الشرّ الذى فى العالم، فهو من صنع الإنسان (تك ٦: ٥ ـ ٨)، فمن الذى يشعل الحروب ويتسبب فى قتل وسفك دماء الآلاف وتشريد الآخرين ودمار مدنهم؟، انه الإنسان؟ الذى أساء استخدام الحريّة، لكى يفنى ذاته ويعطّل خلاصه.

وأمّا محبة الله الفائقة لنا فإنها (تلزمه) بتأديبنا وتشذيبنا وتمحيصنا، لنتغير إلى تلك الصورة التى يريدنا عليها، فهل نسلّم له، ونثق فيه، عندما يحلّ بنا شئ من التأديب؟.

إنه محكّ قوى للتسليم...

فالله ليس مطالباً فى كل مرة، يسمح لنا فيها بالتجارب أو الضغط النفسى، أن يشرح لنا العلّة فى ذلك، إننا لا نقدر أن نستجوبه أو نستذنبه (لعلك تناقض حكمى، تستذنبنى لتتبرر أنت) «أيوب ٤٠: ٨».

عليك أن تراجع نفسك، وتكشف ضعفك، وأما الله فإنه سيشرح لك فى الوقت المناسب، هذا ما قاله الرب لأبينا بطرس (لست تعلم

أنت الآن ما أنا أصنع ولكنك ستفهم فيما بعد) « يوحنا ١٣ :١٧ ».

فهل تصبر فى صمت، أو تصمت فى شكر؟

نحن نعرف فقط التجارب والمتاعب، التى خلصنا الله منها، ولكننا لا نعرف أن هناك أضعاف هذه المتاعب دفعها الله عنا، قبل أن تصل إلينا.. وألآ فمن الذى يحفظك فى نومك، وفى طريقك وبين الأشرار؟.

ولكن يبدو أنها المشكلة التقليدية للإنسان... **النسيان**.

الله المهتم بنا :

لعلّ من أجمل الإستعارات، التى استخدمها الوحى الإلهى، لوصف العلاقة بين الله وشعبه، قديماً، هى الراعى والخراف، ويرد فى تاريخ الكنيسة الأولى أن صورة المسيح الراعى، وجدت منتشرة على جدران سراديب روما، وفى الأيقونات المبكرة، بشكله الجميل البسيط، الذى يحمل الخروف برفق وحب فوق منكبيه.

كانت أوّل الرموز على عناية الله بشعبه، من جهة رعايته لهم، وهى تسليم الغنمات حياتها - بصفة مطلقة - لراعيها، وأمّا الغنمة التى تتكل على ذكائها وتبحث عن مصادر أخرى لطعامها، فإن الذئب، بل الأسد (الشيطان) رابض بين

الوعـر فى انتـظارها (راجع إرميا ٥ :٦).

إن الله لم يهتم فقط بالبشر، بل بالحيوان والنبات والطيور، فقد أوصى - على سبيل المثال - بالإهتمام بالثور (لا تكمّ ثوراً دارساً) «تثنية ٢٥ : ٤». انظروا إلى الألـوان البديعة التى للنبات، والثـمار الحلوة.. (ولا سليمان فى كل مجـده كان يلبس كواحدة منها) «متى ٦ : ٢٩، لوقا ١٢ : ٢٧».

تأملوا الطيور بما فيها من أنواع ضارة، كيف يهتم بها الله ويقوتها، بل يصرّح الله بفمه الطاهر بأننا أفضل من الطيور (لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون ولا للجسد بما تلبسون، الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس) «لوقا ١٢ : ٢٢».

أى أنه إذا كان قد وهبنا نعمة الحياة، أفما يقدر أن يعطى قوتها!، وإن كان قد وهبنا الجسد، أفما يقدر أن يهبه كسائه!. بل أن الله قادر أن يحفظ أجسادنا بلا طعام، فقد وهب الكثير من القديسين، أن يتخلّوا عن طعامهم أياماً بل أسابيعاً كثيرة (١).

لقد تعجب الأنبا زوسيما القس، كيف تحيا القديسة مريم

---

(١) لقد صام الأنبا بيجيمى السائح، ثمانون يوماً، الأنبا بيشوى كذلك صام ذات مرة لمدة واحد وعشرون يوماً دفعة واحدة.

القبطية فى الصحراء دون ثوب! حتى أنه ألقى إليها بعبائته لتستتر بها، وتعجب الأب بفنوتيوس (كاتب سير السوّاح) كيف طال شعر أنبا نفر السائح، ليكفيه الحاجة إلى الملابس.

فهل ثمن الملابس وكثرتها، تفيد شيئاً، إذا وضعت فوق جسد ميت، أو تستطيع أن تعيد إليه الحياة؟ وهل كثرة الأطعمة والشراب فى مقابر الفراعنة، أقامتهم من الموت!

إن الشيطان يعرف جيداً، وأكثر من أى إنسان، أن الله يهتّم بأولاده ويقوتهم، ويدفع عنهم كل شرّ، ولكن حربه معهم (أى حرب الشيطان) ما هى إلاّ استخفاف بهم وتشكيكهم وتقليل ثقتهم فى مخلصهم.

فقد يدفع الشيطان، أحد مديرى العمل، إلى التضييق على مرؤوس له، وعلى الجانب الآخر فإنه يشكك هذا المرؤوس فى محبة الله له وعنايته به! ولكن اسمعوا قول معلمنا بولس الرسول [نحن لا نجهل أفكاره «حيله»] «كورنثوس الثانية ٢ :١١».

إن الله يتعامل مع أولاده بأسلوبين:

(١) تلبية الاحتياج.

(٢) اسقاط الاحتياج.

فمع فريق من الناس يلبّى لهم احتياجاتهم من طعام وشراب ولباس، يلاطفهم ويربّت على أكتافهم، بينما مع الفريق الآخر، يُسقط لهم الاحتياج، بمعنى أن يجعلهم لا يشعرون بالحاجة، فأقل الطعام يكفيهم، وبسيط اللباس يسترهم، أو بمعنى آخر، هم مشغولون عن احتياج الجسد.

غير أن عناية الله واهتمامه بأولاده، ليست منحصرة فى حدود الطعام والملابس فقط، لكنها تمتد لتشمل جميع نواحى الحياة.

عندما تكون مقاليد الأمور فى يدك :

يحكى التلمود اليهودى، أسطورة مفادها، أن موسى النبى، طلب إلى الله أن يدعه يتولى قيادة البشرية ولو ليوم واحد!، وفى الساعة الأولى من ذلك اليوم، رأى موسى رجلاً يقتل صاحبه، فأمر بقتل الجانى فوراً: وفى الحال نحاه الله، مذكراً إياه بأنه قد قتل رجلاً ذات مرة وسامحه!!

عندماتكون أنت صاحب القرار، فى مجال ما، فمهما كنت ذكياً، ومهما كنت قوياً، ومهما كنت غنياً، فإنك لن تحرز النجاح الذى تحرزه متى كان الله هو قائدك، والمحرّك الفعلى، والمشترك معك فى التفكير والتعبير والتقرير. حقاً قال الكتاب (الفرس معدّ للحرب أمّا النصرة فمن الرب) «أمثال ٢١ :٢٣».

إنك لا تعرف أين يكمن خيرك، مثلما يعرفه الله، ولن تحب نفسك، كما يحبك الله، ولا يوجد فى التاريخ البشرى، من هو أشدّ حنواً من الله على البشر، لقد كان قلب داود النبى «حسب» قلب الله، ولكنه لم يكنْ أبداً «مثل» الله، راجع (١صم ١٣: ١٤، أع ١٣: ٢٢).

يُحكى أيضاً عن القديس مقاريوس السكندرى، أنه ذهب فى طريق طويل ليزور بعض الآباء، وفى أثناء سيره، خشى أن يضلّ الطريق عند عودته، فجعل يغرس أعواداً من الجريد على مسافات متباعدة، حتى إذا ضلّ الطريق اهتدى بتلك الأعواد. وفى اليوم الأول لمسيره، تعب عند الغروب فنام، وإذا بالشيطان (على سبيل السخرية) يجمع له أعواد الجريد فى شكل حزمة، ليضعها تحت رأسه - وهو نائم - مثل الوسادة، فلما استيقظ من نومه، ورأى تلك الحزمة: اضطرب وتضايق، وإذا بصوت من السماء يقول له، إذا كنت تؤمن بالذى قاد الشعب فى البرية أربعين عاماً، فثق أنه قادر أن يرشدك فى هذا الطريق القصير.. حقاً يقول الكتاب (وعلى فهمك لا تعتمد «أمثال ٣: ٥».

كم من مرة اعتمدت فيها على حكمتك وحدها.. فجاءت النتائج مخيبة للآمال؟ كم من مرة اتخذت فيها قراراتك، بمعزل عن الله، فعدت من الغنيمة بالفشل؟

التسليم هو أن تكون محمولاً على مشيئة الله وأن تثق فيه، مثل الطفل البرئ.. بين يدى أمه، لا يبالى بالمخاطر، ولا يحتسب لأى طارئ، غير هّياب لأية قوى، فيكفيه أنه مع أمه، فله فى ذلك شعور عميق بالسلام، فكل المخاطر والشرور، لن ترقى إليه، إن مواجهتها ودفعها عنه، هو عمل أمه وحدها.

التسليم من خلال الصليب :

أنظروا كيف قدّم الابن ارادته للآب على الصليب، لكى يصبح - أو لكى يعلن - أن لهما إرادة واحدة (لتكن لا إرادتى بل إرادتك) «لوقا ٢٢ :٤٢».

فإختفى أنت فى الصليب، وسمر ارادتك معه، واحتمل الضيق والحزن والتعيير واضطهاد الخاصّة وتخلّي الأحباء، وحينئذ ستقوم معه بمجد وفرح ونصرة، هادماً شكاية العدو..

سلّم له حياتك وهو سيحوّل مرارتك إلى حلاوة، وضعفك إلى رجاء ونصرة، فهو يفعل أكثر مما نطلب أو نفتكر «أفسس ٣ :٢٠». إنه يداوى الأمراض ويرمّم الثغرات ويشفى القلوب الكسيرة (إشعياء ٦١ :١٠).

تأمل كيف قبلت السيدة العذراء، البشارة مع نبوة سمعان

الشيخ، أنه سيجوز فى نفسها سيف، لقد قالت: هوذا أنا أمة الرب، ليكن لى كقولك، والأمة هى العبدة، والعبد لا مشيئة له، ولكنه يصنع ارادة سيده، وحفظت السيدة العذراء كل هذا الكلام متفكرة به فى قلبها، وقبلت كل ما ترتب على البشارة، من ترك الهيكل والخطبة ليوسف، وشك يوسف فيها ورغبته فى تخليتها سراً... الخ، ولكن أية كرامة، التحفت بها وأية طوبى نالتها.. حتى صار تسبيح العذراء على كل فم ومجدها الذى وهبه الله لها مجداً لم ينله انسان قط.

انظر كيف عاش أبونا إبراهيم حياة التسليم، فعندما دعاه الله لترك كل شئ حتى عشيرته، أطاع، دون أن يعرف المكان الجديد الذى سينقله الله إليه، حتى عندما طلب الله منه أن يسلّم له ابنه بتقديمه ذبيحة!، لم يمسكه عنه، وكذلك اسحق نفسه لم يتذمر ولم يرفض، بل فى تسليم عجيب وبراءة، يسأل عن الذبيحة، ولما وضعه أبوه على الحطب، لم يهرب وكان عمره وقتئذ خمسة وعشرون عاماً.

فلماّ سلّم إبراهيم حياته لله، أعطاه الله البركة، وجعل الأمم تتبارك فيه، وجعله أصل ذرية شعب إسرائيل، وأمّا اسحق والذى هو رمز للمسيح، فقد عاش حياة صالحة إلى شيخوخة مباركة، وبه دعى لإبراهيم النسل (باسحق يدعى لك نسل).

بين التسليم والتواكل :

ولكن التسليم لا يعنى، أن نقف مكتوفى الأيدى، مترقبين عمل الله، فهناك دور علينا القيام به، ففى التسليم يقوم الإنسان بأداء دوره كاملاً دون نقصان أو تهاون، ويعرف معنى أن يكون أميناً وجاداً، فإذا ما أدّى الدور المنوط به كاملاً، فإنه حتماً سيتقبل بعد ذلك النتيجة التى سيضعها له الله، ويفرح بها دون تذمّر أو تشكّك.

وأمّا التواكل، فهو أن يقف الإنسان مكتوف الأيدى بلا عمل، بلا تعب، بلا جهاد أو سهر وعرق، لينتظر أن يقوم الله بعمل كل شئ، وهذا المتواكل - غالباً - ما يتذمر أيضاً تجاه ما يهبه الله إياه!.

ولكن الله لم يعلّمنا ولم يسلّمنا مثل ذلك، وإنما علّمنا أن نستخدم الإمكانيات والطاقات التى وهبنا إياها، ثم يكمّل هو بعد ذلك. ففى معجزة إشباع الجموع، طلب السيد المسيح من تلاميذه أن يقدموا هم طعاماً للشعب، ولّما جاءوا بالقليل من الخبز والسمك - كأقصى طاقة لهم - أكمل (له المجد) العمل وأشبع خمسة آلاف عدا النساء والأولاد.

وحدث كذلك فى معجزة شفاء ذو اليد اليابسة، أن طلب الرب، من المريض أن يمد يده، ولم يتذمر الرجل لأنه طلبٌ مستحيل

(فالمنطق هو أن يُشفى أولاً وعندئذ يحرّكها) ولكنه أطاع فشفى!، وعندما أقام السيد المسيح لعازر، من القبر، طلب من الجموع أن يرفعوا الحجر عن باب القبر، على الرغم من أن الذى يستطيع اقامة الميت (وهو الله) قادر أيضاً أن يرفع الحجر عن موضعه بمجرد الرغبة، وتكرر نفس التعليم فى معجزة شفاء الأعمى، فقد طلب الرب من المريض، أن يذهب ليغتسل فى سلوام، إنها مشاركة فى العمل. **فنحن نعمل ما يمكن عمله، والله يعمل ما لايمكن عمله.** يقول القديس يوحنا ذهبى الفم «الله لا يعطى للكسلان ولكنه يعطى لمن لا يستطيع».

ويروى التقليد العبرى، أن مياه الأردن، لم تنشق، ليعبر الشعب إلى أرض الموعد، إلاّ بعد أن لامست بطن قدم أول كاهن، سطح الماء!

لماذا القلق ؟

لا تقلقوا، بسبب الدراسة أو العمل أو المسكن والزواج، فكل الذين تخرجوا من الجامعات، كانوا قلقين مثلكم أثناء الدراسة، وعندما كان يحدّثهم آخرون عن حياة الإيمان والتسليم، كان يتراءى كلامهم لهم كالهذيان «لوقا ٢٤: ١١».

كذلك، فإن جميع الذين أحرزوا أماكناً مرموقة فى العمل، كانوا قلقين وهم يجدّون فى البحث عن عمل، وكل الذين تزوجوا وصار لهم أطفال كانوا قلقين مثلكم... وها هم يقطنون آمنين مع زوجاتهم وأولادهم وليس أدلّ على وجوب الثقة والتسليم، من أن كل كنائس الكرازة، تعقد آلاف الأكاليل فى كل ليلة!!

فقد اغتنى كثيرون، وتفوق آلاف ممن كانوا يشعرون بالفشل.. وآلاف التعابى استراحوا، فقد كان ترتيب نابليون بونابرت، عندما تخرّج فى الكلية الحربية: الأربعين بين رفقائه، كذلك كان ألبرت أينشتاين، ضعيفاً فى الرياضيات فى صباه، وكان توماس أديسون صبياً مجهولاً فى صغره، حيث تنقّل بين عدة أعمال ليكسب قوته. وقد تكون أنت واحداً مثل هؤلاء وأولئك، والله يأتى فى الوقت المناسب، وبالطريقة المناسبة، وليس من الصواب فى شئ، أن نستحث الله على الاسراع، أو أن نملى عليه الطريقة التى يحلّ بها مشاكلنا.

ففى مثل العذارى «متى ٢٥: ١ ـ ١٣» نامت العذارى، عندما أبطأ العريس فى الوصول، فى حين أنه ـ فى الواقع ـ لم يبطء كما ظنّن، بل هن اللائى مللن الانتظار وتعجلن مجيئه فنمن!. إن العريس سيأتى فى الوقت المحدد، ولن يثنيه كائن ما كان عن المجئ فى موعده، ولن يعطله شئ ولن يغير خطته، مهما كانت هناك شكاية

عليك، أو مهما صدر عنك.

لا حظ مثلاً فى قاضى الظلم «لوقا ١٨ : ١ـ ٨» كيف كان القاضى لا يشاء الاستجابة إلى حين (زمان) رغم إلحاح الأرملة، ولكنه فى وقت معين استجاب، لا على أساس استحقاق الأرملة ولكن بسبب لجاجتها، وهكذا الله يعطى بحسب تحننه، وفى تعليق السيد المسيح على المثل يقول ولكن متى جاء إبن الانسان (زمان الاستجابة) ألعله يجد الإيمان (الثقة والانتظار) على الأرض (فى قلب الإنسان) ؟.

أخيراً :.

حتى وإن سلّمت حياتَك وأمورك لله، فيجب أن تسلّمها بلا قيد أو شرط، فلا يليق بك أن تحدّد للرب، الطريقة التى يحلّ بها مشكلتك، ولكن اترك الأمر كله له، سلّم له طريقك واتركه يضع الحلّ الذى يراه مناسباً، فكثيرون يصلون (**لتكن مشيئتك**) مع تحفظ لرغبة ما: يرغبونها أو كيفية ما يرونها لحل مشاكلهم. حتى إذا كانت لديك رغبة خاصة أو اشتياق خاص، ليتك تضع هذا الاشتياق أمام الله، دون التمسك به (١).

---

(١) يقول الكاتب والأديب الشهير ميخائيل نعيمة فى إحدى مقالاته (نحن آسفين يا الله لأننا نلقى إليك الكثير من الأوامر، فيما نسميه صلاة!!).

صل للرب قائلاً (أنا أرى هذا الأمر أو أرى هذا الطريق، مناسباً)، ولكنّى مهتم بمعرفة رأيك يارب، فإذا كان هذا الأمر يناسبنى، دعنى استلمه من يديك أنت لافرح به كعطية مباركة منك، أما إذا لم يكن مناسباً، فليتك يارب تنزع عنى التفكّر به.) حتى اللجاجة نفسها، والتى تعنى (الاستمرار الذى لا يخجل) فإنها تقوم على أساس أن تتم مشيئة الله لا مشيئتنا، هب أنك تفكر مثلاً فى الرهبنة: اطلب من الرب أن يشق لك طريقاً إلى الدير، ويذلل العقبات، ويفتح الأبواب المغلقة ويعطى قناعة لكل الأطراف، هذا حين يرى الله أن الطريق مناسباً لك، وألاّ فلينزع عنك التفكير فيه ويحوّل اهتمامك إلى طريق آخر. أو هذه الفتاة التى تراها مناسبة للإرتباط بها: صلّ بحرارة وتسليم ليصنع الله ما يراه مناسباً... وهكذا..

إن الذى يحيا حياة التسليم، لا رغبة له سوى أبديته، وأمام هذه الرغبة تضعف كل الرغبات بل تتلاشى، هو شخص عينه مفتوحة على الأبدية، وعقله له إتجاه واحد، هناك نحو المجد، ولذلك فهو يستخفّ بالأمور الحاضرة، حتى الإهانة وحتى الخسارة.. وحتى الموت..

لقد كان معلمنا بطرس الرسول، يرقد نائماً فى السجن، وحيث

ينتظر قطع رأسه صباحاً، ولكنه لم يكن خائفاً أو قلقاً، حتى على زوجته وأولاده!.. فاستغرق فى نوم عميق، لدرجة أن الملاك عندما ذهب لينقذه، لكزه لكى يوقظه من النوم!. لم يكن معلمنا بطرس مستريح البال وهادئ الخاطر لأن الله سوف يحل له مشكلته، أبداً وانما كان فرحاً بالمجد الذى ينتظره صباحاً، ولأن الأمر كله فى يد الله.

الله يقودنا بنفسه .. إليه .. فهو الطريق .. وهو الطريقة .. هو الوسيلة وهو الغاية.

والذى تعلّم كيف يحيا حياة التسليم هو شخص سعيد، فالسعادة هى ردّ الفعل الناتج عن التسليم.

دير البرموس

أبريل ١٩٩٥

كتب أخرى للمؤلف

دراسات في العهد القديم:

١) تفسير سفر طوبيا
٢) تفسير سفر يهوديت
٣) تفسير سفر حكمة سليمان
٤) تفسير سفر يشوع بن سيراخ
٥) تفسير تتمة أستير ودانيال وصلاة منسى والمزمور ١٥١
٦) مدخل إلى سفري المكابيين
٧) تفسير سفر المكابيين الأول
٨) تفسير سفر المكابيين الثاني

كتب تاريخية ودراسات:

٩) الرهبنة الحبشية
١٠) شهداء نجران
١١) بيلاطس البنطي
١٢) التلمود (نشأته، تاريخه؛ بعض من نصوصه)
١٣) الهيكل: الطقوس والاحتفالات كما كانت تتم في أيام السيد المسيح (مترجَم)
١٤) مدخل إلى الموسيقى القبطية (طبعة تحضيرية)
١٥) دراما الصلب

سير آباء:

١٦) الأنبا موسى الأسود
١٧) الغريبان الصغيران (القديسان مكسيموس ودوماديوس)
١٨) الأب عبد المسيح الحبشي
١٩) الأب بنيامين المتوحد
٢٠) الأب عبد المسيح صليب المسعودي البرموسي
٢١) الأب تادرس الأنبا بولا (حكاية راهب في القلاية المجاورة)
٢٢) شهداء العهد القديم

كتب روحية:

٢٣) التلمذة الروحية
٢٤) الميطانيات
٢٥) شبابنا وفكر الرهبنة
٢٦) معلمين كثيرين
٢٧) كيف أحيا عفيفا
٢٨) العمل الفردي